

## الاستدلال العلمي العقدي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور.

د/ حجية شيدخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة

### ملخص:

اهتم علماء المسلمين منذ القديم بتفسير الإشارات العلمية في القرآن الكريم وكان كل منهم يفسره بما ظهر في زمانه من نتائج العلم، ومن القدماء الذين اهتموا بالتفسير العلمي: أبو حامد الغزالي والفخر الرازي. وفي العصر الحديث تطورت العلوم على غير ما كانت عليه في الماضي، فكان من الضروري الاستفادة منها في الخطاب الإسلامي، ومن العلماء المسلمين الذين اهتموا بهذا المجال في تفسير القرآن الكريم محمد الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير الذي يعتبر من التفاسير القيمة فقد أتى فيه كما قال بخير ما في التفاسير وبخير مما في التفاسير، إلا أنه لم يكن مبالغاً في التفسير العلمي ووضع له ضوابط، ولم يجعله هدفه بل كان يستفيد من نتائج العلم الحديث بما تدعو إليه الحاجة مؤكداً أن ما ورد في القرآن من إشارات علمية إنما هي من دلائل إعجاز القرآن، وقد استفاد من نتائج العلم الحديث في الاستدلال على قضايا العقيدة كإثبات صفات الله عز وجل وإثبات النبوة والبعث.

### Abstract:

Muslim scholars cared Mend the old interpretation of the scientific references in the Koran and was interpreted by each of them, including his time in the back of the results of science, religion and the ancients were interested in the scientific explanation: Abu Hamid al-Ghazali and al-Razi pride. In the modern era evolved science is not what it was in the past, it was necessary to take advantage of them in the Islamic discourse, and Muslim scholars of religion interested Bhda area in the interpretation of the Koran : Mohamed Tahar Ben Achour in the interpretation of liberation and enlightenment my father is one of the interpretations of the value it has brought the he also said okay what the interpretations and fine than in interpretations, but it was not overdone in the scientific explanation and put his controls, and did not make it his goal but it was

benefiting from the results of modern science as was needed , stressing that what is stated in the Qur'an of signals scientific but they are signs of miracles of the Quran , have benefited from the results of modern science in the reasoning on issues of faith as proof of the attributes of God Almighty and to prove the prophecy and rebirth .

### مقدمة:

أصبحت الصورة في العصر الحديث تمثل العمود الفقري للثقافة السائدة حالياً على الصعيد العالمي، مع تهاوي حدود الزمان والمكان، وتشابكت فيها العولمة مع الخصوصيات، والأحادية مع التعددية، كما لعبت منذ القدم دوراً كبيراً في إعادة تشكيل الحياة الاجتماعية، والثقافية والنفسية للمجتمعات العربية والإسلامية، فمن خلالها يمكن الغوص في أعماق الوعي العربي والإسلامي، وبالتالي التأثير فيه وتوجيهه الوجهة التي يريدونها وبالتالي صناعة رأي عام يخدم مصالحهم في المنطقة.

### الاستدلال العلمي العقدي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور: (\*)

الإنسان المؤمن لا يحتاج إلى أدلة عقلية للإيمان بالعقائد الإسلامية، لما يجد لها من صدى داخلي أو استجابة الفطرة المكونة في أعماقه.

والاستدلال العلمي على قضايا العقيدة الإسلامية إلى جانب كونه مقرراً في القرآن الكريم من جهة ما نجده من إشارات علمية لهذه القضايا، فقد فرضته كذلك مستجدات العصر الذي نعيشه، وقد كان المسلمون قديماً يتحدثون خصمهم بالسلاح نفسه الذي يحاربهم به، ولذلك نلاحظ طغيان منهج الاستدلال المنطقي على قضايا علم الكلام القديم لكون الخصم المتحدى كان متمرساً بفن المنطق، أما في العصر الحديث الذي أصبح فيه العلم التجريبي هو المسيطر، فقد أصبحت العقلية الحديثة تطلب علم كلام جديد، لا يعتمد في استدلاله على مبادئ المنطق، وإنما يعتمد على العلم الحديث وإذا تتبعنا تاريخ بداية الاستدلال بهذا المنهج على قضايا العقيدة عند المسلمين وجدناه متطوراً مع تطور العلوم، وقد وجد مبكراً فقد كان أبو حامد الغزالي يؤكد على وجود علوم كثيرة في القرآن الكريم يكشف عنها عبر العصور، إذ يقول: «وظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم لم تخرج من الوجود، وإن كان من قوة الأدمي الوصول إليها»<sup>1</sup>.

لقد كان الغزالي من دعاة النظر في الآيات القرآنية نظرة علمية، لأنه كلما كان تأمل الإنسان في القرآن، وأدرك معاني تلك الإشارات العلمية الموجودة فيه، كلما ازداد إيماناً بكون هذا القرآن من عند الله - عز وجل -، وبأنه - تعالى - يتصف بجميع صفات الكمال التي تثبت له مطلق الألوهية والربوبية، يقول الغزالي معلقاً على قوله - تبارك وتعالى: «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم»<sup>2</sup>.

ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل والنهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هياكل تركيب السماوات والأرض، وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى: «يا أيها الإنسان ما غرك برك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك»<sup>(2)</sup>، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها، وأنواعها، وحكمتها ومنافعها...»<sup>3</sup>.

وإذا توصل الإنسان إلى هذه المعرفة - أي القائمة على العلم بحقائق الأمور - عرف الله - تبارك وتعالى - حقيقة، ومن الذين أتوا بعد الإمام الغزالي واهتموا كثيراً بالاستدلال العلمي في تقرير قضايا العقيدة الإسلامية والرد على العقيدة المنحرفة: الإمام الرازي، ونستطيع القول أنه طبق فعلياً ما كان يدعو إليه الغزالي نظرياً، وقد كان الإمام الرازي يرى مشروعية الاستدلال العلمي على العقيدة انطلاقاً من تحديده لمعاني القرآن نفسه، ويؤكد هذه المشروعية من عدة وجوه منها<sup>4</sup>.

- أن الله تبارك وتعالى - قد ملأ كتابه استدلالاً على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار، وكرر ذكر ذلك، فلو لم يكن البحث والتأمل فيها والاستدلال بها جائزاً لما ذكره الله - عز وجل - في كتابه.
- من هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى - يقول في كتابه الحكيم: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج»،<sup>5</sup> وفي الآية حث منه عز وجل على التأمل، ولا معنى لعلم الهيئة إلى التأمل في بنائها.

ومنها أنه عز وجل قال: «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون»<sup>6</sup> فأفادت الآية أن عجائب الخلق وبدائع الفطرة في أجرام السماوات والأرض أكثر مما هي عليه في أبدان الناس.

- وأخيرا قوله تبارك وتعالى: «ويفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا»،<sup>7</sup> فقد مدح الله - سبحانه وتعالى - المتفكرين في خلق السماوات والأرض ولو كان ذلك ممنوعا منها لما فعل.

ومن خلال هذه الوجوه نلاحظ أن الرازي كان متحمسا جدا للاستدلال العلمي حتى يزداد المؤمن إيمانا، ويهتدي الحائر إلى اليقين يقول: «فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه -تعالى- إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار...»<sup>8</sup>، ولكي يتضح لنا منهج الاستدلال العلمي أكثر عند الرازي نتابع معه بعض الأمثلة.

يقول حين تفسير قوله -تبارك وتعالى-: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»<sup>9</sup>، يقول: «دلت هذه الآية على أنه لا بد من الاستدلال على وجود الصانع بالدلائل العقلية، وأن التقليد ليس طريقا البتة إلى تحصيل هذا الغرض...»<sup>10</sup>.

وبعد تفسير الآية على ضوء علوم عصره، يشير الرازي إلى أن هذه المخلوقات كما أنها دلت على وجود الصانع وصفاته، فهي كذلك تدل على وجوب طاعته وشكره -أي توحيد عبادته<sup>11</sup> - فنلاحظ من خلال تفسيره أنه كان يوجه العلم للاستدلال على العقيدة، وفي تحديد معنى قوله -سبحانه وتعالى-: «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته إليه مع الله تعالى الله عما يشركون»<sup>12</sup>، يذكر التفسيرات المختلفة لكيفية تكوّن الرياح والسحاب وانتقاله من بلد إلى آخر، ثم يقول: «هب أن الأمر كما ذكروه، ولكن الأسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله -تبارك وتعالى- فإنه لولا الشمس وتأثيرها في تصعيد الأبخرة والأدخنة ولولا طبقات الهواء لما حدثت هذه الأمور... ومعلوم أن من وضع أسبابا فادته إلى منافع عجيبة، وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذي فعل تلك المنافع، فعلى جميع الأحوال لا بد من شهادة هذه الأمور على مدبر حكيم واجب لذاته، قطعاً لسلسلة الحاجات»<sup>13</sup>.

إن منهج الاستدلال العلمي على قضايا العقيدة الإسلامية مستنبط من القرآن الكريم، إلا أن تطوره كان بحسب تطور العلوم عبر العصور، ويعتبر في عصرنا الحالي، مقارنة بالماضي، أكثر اكتمالا، نظرا لتطور العلوم واهتمام علماء العقيدة به، واعتباره من مظاهر التجديد في منهج عرض العقيدة الإسلامية، يقول وحيد

الدين خان: «فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التي تثار ضد الدين، كان لا بد من تغيير لهجتنا ولغتنا، بتلك التي يستعملها الأعداء، حتى نستطيع أن نقف أمام العواصف، وعلينا ألا ننسى أن طريقة الكلام وأسلوبه قد تغيرا بتغير الزمن، ولذلك علينا أن نأتي بعلم كلام جديد لمواجهة تحدي العصر الحديث». <sup>14</sup> ووحيد الدين خان من أبرز علماء العصر الحديث تمثيلا لهذا المنهج وبخاصة من خلال كتابه المشهور: الإسلام يتحدى.

وابن عاشور من العلماء المحدثين الذين عايشوا التطورات العلمية الحديثة فنريد أن نعرف موقفه من الاستدلال العلمي على قضايا العقيدة الإسلامية، ومدى تطبيقه له:

يرى ابن عاشور أن القرآن الكريم معجز لجميع البشر من حيث ما اشتمل عليه من إشارات علمية، هذه الإشارات فيها دلالة -أولا- على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم- من جهة أنه تلقى هذا الوحي من الله -عز وجل- في بيئة لم يعالج أهلها دقائق العلوم، والذي أتى بهذه الإشارات العلمية مستقر بينهم، وفيها -كذلك- دلالة على صدق كل قضية من القضايا المقترنة بهذه الإشارات. <sup>15</sup>

ويرى ابن عاشور أن مشروعية الاستدلال العلمي تنبع من القرآن الكريم فهو يحمل روحا علمية مبنوثة في الآيات، وتتمثل في دعوته إلى النظر والاستدلال، وفي التنبيه إلى مسائل لا يعرفها إلا المطلع على الحقائق العلمية، وتشبيهه العلم بالنور والحياة، <sup>16</sup> فكل هذا نلمس فيه دعوة إلى الاستدلال العلمي الذي يؤكد أحقية الدين وجميع أموره. -يقول تعالى- في فضل العلم والعلماء: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»، <sup>17</sup> ويقول: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون». <sup>18</sup>

ويشير ابن عاشور إلى أنه لا حرج في الأخذ من مختلف العلوم لخدمة مقاصد القرآن الكريم <sup>19</sup> وبما أن العقيدة الإسلامية أهم المقاصد التي يريد القرآن الكريم ترسيخها، فإن الاستدلال العلمي يزيدها ثباتا وحجة.

وقد رد على الشاطبي الذي عارض تناول القرآن الكريم إلا على ما كان متعارفا عند العرب، وكان عاما في الفهم، وقد أقام رأيه هذا على مفهوم أمية الشريعة في نظره، وليس معقولا أن يخاطب القوم الذي نزلت فيهم هذه الشريعة -وهم أميون- بما لا يفهمون، <sup>20</sup> ورد ابن عاشور هذا الرأي من عدة وجوه. <sup>21</sup>

الأول: أن من مقاصد القرآن الكريم نقل العرب من حال إلى حال (من الأمية إلى العلم).

الثاني: عموم الدعوة، وكون القرآن معجزة باقية يقتضي أن تحتوي كل ما يصلح لكل زمان ومكان، كما أن مفهوم الإعجاز في نظره يتمثل في استخلاص المعاني الكثيرة من الألفاظ القليلة.

الثالث: إنصافه بكونه لا تنقضي عجائبه بانحصار أنواع معانيه فلا يصح حصرها فيما بلغ إليه العرب زمن نزوله.

الرابع: أننا غير ملزمين بالبقاء على ما وصل إليه السلف، وإن كانوا فصلوا فيه وفرّعوا، فلا يمنعنا ذلك من البحث في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية وبيان معانيها وحين نرجع إلى مواطن الاستدلال العلمي عند ابن عاشور، نلاحظ أنه كان حذرا في استعماله، وقد دعا إلى التثبت في ذلك ووضع شروطا هي.<sup>22</sup>

- عدم الخروج عما يصطلح عليه في اللغة العربية، أو الابتعاد عن الظاهر إلا بدليل، وعدم التكلف البين والخروج عن المعنى الأصلي.
- إتباع مسلك الإيجاز وتجنب الاستطراد.

ومن الأمثلة التطبيقية لهذا المنهج عند ابن عاشور نذكر ما يلي:

أ) الاستدلال على توحيد الربوبية والألوهية: يقول تبارك وتعالى: «خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى»<sup>23</sup>، يحدد ابن عاشور المعنى اللغوي لفعل كَوَّر فيقول: «التكوير: حقيقة اللف، يقال كور العمامة على رأسه إذا لواها ولفها، ومثلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض، وعكس ذلك على التعاقب بهيئة كور العمامة إذ تغشي الليلة التي قبلها»<sup>24</sup>.

وعرّف ابن منظور التكوير تعريفا مماثلا بالتقريب، إذ قال: «الكور لوت العمامة يعني إدارتها على الرأس، وقد كورتها تكويرا.. وكل دارة من العمامة كور، وتكوير العمامة كورها، وكار العمامة على الرأس يكورها كورا، لأنها عليه وأدارها»<sup>25</sup>.

يشير ابن عاشور إلى التوافق بين المعنى اللغوي للتكوير وما أثبتته العلم، فقد أبدع القرآن الكريم في اختيار هذه الكلمة للتعبير على كروية الأرض، إذ شبه

الأرض بالرأس وشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة، يقول: «والأرض كروية الشكل في الواقع وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر، فأما القرآن إليه بوصف العرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار إذ جعل تعاورهما تكويرا لأن عرض الكرة يكون كرويا تبعا لذاتها».<sup>26</sup>

ويذكر الدكتور "موريس بوكاي" أن اختيار فعل كَوَّر مناسب لما أثبتته العلم الحديث، وبعد حديثه عما يراه العلم يقول: «... هذه الدورة الدائبة للنهار والليل هي كاملة الوصف في القرآن، وقبول إدراكها يسير على الفهم الإنساني، لأننا نملك المفهوم الذي يؤكد ثبوت الشمس النسبي ودوران الأرض، وأن امتداد هذا التكور المستمر مع تداخل قسم بآخر بشكل متعاقب معبّر عنه في القرآن كما لو كان الناس قد تصوّروا في ذلك الزمن كروية الأرض، بينما لم يكن الأمر كذلك...».<sup>27</sup>

ويشير الدكتور: منصور حسب النبي إلى أن الوصول إلى معرفة أن الأرض كروية الشكل لم يكن أمرا سهلا، ذلك لأن الحواس، دون تدقيق، تعطينا انطبعا بأن الأرض مستوية الشكل، وقد توصل العلم الحديث بالتصوير من سفن الفضاء، إلى أن الأرض كروية تقريبا،<sup>28</sup> وهذا معنى قوله -عز وجل-: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل»، وبتفصيل أكثر يفسر معنى التكوير في الآية فيقول: «إنك لو جئت بشيء ولففته حول كرة فنقول أنك كَوَّرْتَ هذا الشيء، وحيث أن الغلاف الجوي للأرض يحيط بالأرض مشدودا إليها بقوة الجاذبية من جميع الجهات فإن هذا الغلاف يأخذ شكل الأرض وحيث أن ضوء النهار ينشأ بالتشتت على ذرات وجسيمات هذا الغلاف فإن النهار والليل متكوران على الأرض وبهذا فإن الآية الكريمة تشير إلى كروية الأرض بديل غلافها الجوي بلبه أو نهاره، وكذلك تشير إلى عملية التبادل بين النهار والليل نتيجة دوران الأرض حول نفسها وأن الليل والنهار موجودان في نفس الوقت حول الكرة الأرضية فنصف الأرض المواجه للشمس يكون نهارا والنصف الآخر يكون ليلا... وهكذا يتعاقبان كما في قوله تعالى: «ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»<sup>29</sup>».<sup>30</sup>

نلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن كلمة واحدة أفادت إعجاز القرآن الكريم وهي كلمة: التكوير، فقد عبر القرآن الكريم في إيجاز عن حقيقة علمية تعب العلماء في الوصول إليها.

وقد ذكر ابن عاشور في أول تحديده لمعنى الآية أنها تهدف إلى: «الاستدلال بخلق السماوات والأرض على أنه -تعالى- المنفرد بالخلق، إذ لا يستطيع شركاؤهم خلق العوالم».<sup>31</sup> تم في الأخير ذهب إلى أن في الآية استدلالاً على الإلهية الحق، إذ يقول: «فلما كان سياق الآية الاستدلال على الإلهية الحق بإنشاء السماوات والأرض اختير الاستدلال على ما يتبع ذلك من خلق العرضين العظيمين للأرض في مادة التكوين دون غيرها».<sup>32</sup>

ومن خلال هذين النصين نلاحظ أن ابن عاشور قد استدلل بالآية على توحيد الربوبية في النص الأول، وفي الثاني ذكر أنها تفيد توحيد الألوهية، ولا تعارض في ذلك إذ أن من مقتضيات توحيد الربوبية توحيد الألوهية، فقد استدلل القرآن بما تحمله مادة: التكوين من حقيقة علمية على أن الله -عز وجل- وحده المنفرد بخلق العالم بكيفياته، وذلك بقصد تأكيد أنه وحده -عز وجل- المستحق للعبادة.

ب) الاستدلال على وحدانية الله -عز وجل- يقول تبارك وتعالى: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون».<sup>33</sup>

لقد أتت هذه الآية مباشرة بعد قوله -عز وجل-: «والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمان الرحيم»<sup>(34)، (34)</sup> فهي استدلال على وحدانية الله -سبحانه- ويرى ابن عاشور أنها قد جمعت كثيراً من الإشارات العلمية الراجعة لعلم الهيئة وعلم الطبيعة، وعلم الجغرافيا وعلم حوادث الجو.<sup>35</sup>

ومن التفسيرات التي ذكرها ابن عاشور والمبنية على أساس العلم الحديث تحديده لكيفية نزول المطر إذ يقول: «يتكون من تصاعد أبخرة البحار ورطوبة الأرض التي تبخرها أشعة الشمس، ولذا لم يخل الهواء من بخار الماء، إلا أن بخار الماء شفاف غازي، فإذا جاور سطحاً بارداً ثقل وتكاثف فصار ضباباً أو ندى أو سحاباً، وإنما تكاثف لأن أجزاء البخار تجتمع فتقل قدرة الهواء على حمله ثم إذا تكامل اجتماعه نزل مطراً».<sup>36</sup>

ويرى أن وجه دلالة هاته الآيات الكونية المذكورة في هذه الآية القرآنية على وحدانية الله -عز وجل- أن النظام البديع الملاحظ في هذه الأشياء التي ذكرت وتدبيرها وتكوينها فيه دلالة قوية على أن المتحدث بها، الصانع لها متصفاً بالعلم والحكمة وكل صفات الكمال التي تقتضيها الألوهية، والمتصف بهذه الصفات لا

بد أن يكون واحدا،<sup>37</sup> كما يشير إلى أننا يمكن أن نستدل بهذه الآية على وجوده - تبارك وتعالى- وهذا الاستدلال يقابل ما يسمى عند المتكلمين: الاستدلال بالعالم على الصانع، فنلاحظ أنه استدل علميا على برهاني: التمانع والاستدلال بالعالم على الصانع المعروفين عند علماء الكلام، فهو يقرهما ويؤكدهما بما وصل إليه العلم من نتائج.<sup>38</sup>

ج) الاستدلال على دقة صنع الله وسعة علمه: يقول تبارك وتعالى: «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون».<sup>39</sup>

يشير ابن عاشور إلى أن المفسرين القدماء كانوا يعتقدون أن هذه الآية تتحدث عن أمر يحصل يوم النفخ في الصور ويرى أن ذلك غير صحيح لأن قوله -عز وجل- «الذي أتقن كل شيء» فيه دلالة قوية على أن الآية تتحدث على أحوال الدنيا لأن الله -عز وجل- أراد بذلك التعبير على استدامة النظام الذي هو من الأحوال الملاحظة في الدنيا، ولم يذكر الخرم والتفكيك<sup>40</sup> وتعليقه هذا موافق لما ذهب إليه المفسر "طنطوي جوهري" إذ يقول: «الأرض تجري سريعا، والجبال ما هي إلى من أجزائها. فهي جارية تمر هي والأرض حول الشمس كما يمر السحاب حول الأرض، والدليل عليه قوله «صنع الله الذي أتقن كل شيء» فعبّر بلفظ: أتقن لا بلفظ خرب كل شيء لأن القيامة تخريب لا إتقان للصنع وفرق بين الصنع والتخريب».<sup>41</sup>

وقد فسر كل من ابن عاشور وطنطوي جوهري الآية على أساس ما توصل إليه العلم الحديث من نتائج، وهذا لم يتسن للمفسرين القدماء. يقول ابن عاشور: «إن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض فينشأ عن دورانها نظام الليل والنهار، ويسحبون الأرض ساكنة، واهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريبا وضياء النصف الآخر، وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد... وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي غاليلي الإيطالي...».<sup>42</sup>

ويذكر أن هذه الآية أفادت تأكيد سعة علمه -تبارك وتعالى-،<sup>43</sup> فعن طريق ملاحظتنا لهذه الإشارات العلمية التي يتوصل إلى معرفتها العلماء والتي هي دليل على دقة الصنع والإتقان، يثبت لدينا أنه -عز وجل- يتصف بصفة العلم الكامل، وقد استدل علماء الكلام قديما على ثبوت صفة العلم له -عز وجل- بإتقان العالم،

بناء على الملاحظات الظاهرة لما في الكون، أما هو فقد أثبت ذلك مثلهم، واستدل عليه بنتائج العلم الحديث.

(د) الاستدلال على حدوث البعث: حين نتابع أي الذكر الحكيم، نلاحظ أن أغلب الآيات التي تحدثت عن مراحل خلق الإنسان، وردت في موطن الاستدلال على حدوث البعث ومنها:

قوله تبارك وتعالى: «يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً».<sup>44</sup>

ويقول -تبارك وتعالى-: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا المضغة، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون».<sup>45</sup>

ويقول -عز وجل-: «أحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى».<sup>46</sup> ويقول -سبحانه وتعالى-: «فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، إنه على رجهه لقادر».<sup>47</sup>

هذه الآيات تتحدث عن مراحل خلق الإنسان منذ نشأته أول مرة في صلب الرجل إلى قراره في رحم المرأة ثم خروجه إلى الدنيا، وورد ذلك بمناسبة الحديث على حدوث البعث، وفي ذلك استدلال على أن الذي خلق الإنسان أول مرة قادر على رجه مرة أخرى يوم القيامة، وقد أثبت ابن عاشور المعاني الواردة في الآيات، اعتماداً على ما توصل إليها العلم يقول: «وكون الإنسان مخلوقاً من النطفة لأنه تقرر في علم الطب أن في رحم المرأة مدة الحيض جزء، هو مقر الأجرام التي أعدت لأن يتكون منها الجنين، وهذا الجزء من الرحم يسمى في الاصطلاح الطبي (المبيض) لأنه مقر بيضات دقيقة جداً وهي من المرأة بمنزلة البيضة من الدجاجة أو بمنزلة حبوب بيض الحوت، مودعة في كرة دقيقة كالغلاف لها، يقال لها: الحويصلة، تشتمل على سائل تسبح فيه البيضة فإذا حاضت المرأة، ازدادت كمية السائل الذي تسبح فيه البيضة فأوجب ذلك انفجار غلاف الحويصلة، فيأخذ ذلك السائل في الانحدار، يحمل البيضة السابحة إلى قناة دقيقة تسمى "بوق فلوبوس" لشبهه بالبوق، وأضيف إلى (فلوبيوس) اسم مكتشفه، وهو البرزخ بين

المبيض والرحم، فإذا نزل فيه ماء الرجل وهو النطفة بعد انتهاء سيلان دم الحيض، لقحت فيه البويضة واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة المشتملة على جرثومات ذات حياة وتمكث مع البويضة متحركة مدة سبعة أيام تكون البويضة في أثناءها تتطور بالتشكل بشبه تقسيم مع أثر ضغط طبيعي. وفي نهاية تلك المدة تصل البويضة إلى الرحم وهناك تأخذ في التشكل، وبعد أربعين يوما تصبح البويضة علقة في حجم نملة كبيرا طولها من 12 إلى 14 ميليمتر ثم يزداد التشكل يوما فيوما إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفع إلى الخروج وهو الولادة». 48

إن هذه التحليلات التي أعطاها ابن عاشور مأخوذة من نتائج العلم الطبي الحديث. 49 ويؤكد لنا هذا أكثر تحديده لقوله تعالى: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث»، 50 إذ أوضح توضيحا علميا دقيقا ماهية الظلمات الثلاث ومراحل تطور الجنين، ونمو حجمه، 51 وعن هذه المراحل التي ذكرها القرآن الكريم يقول الدكتور مورييس بوكاي: «إن وصف مراحل تطور الجنين كما هو في القرآن يتجاوب مع كل ما نعرفه اليوم عن ذلك، وهو لا يحتوي أية عبارة ينتقدها العلم الحديث». 52

ويذكر ابن عاشور أن الحقائق العلمية الواردة في هذه الآيات أتت للاستدلال على حدوث البعث وقد ورد في سورة الحج قوله تعالى: «لنبين لكم» ففسر ذلك بقوله: «أي لنظهر لكم إذا تأملتم دليلا واضحا على إمكان الإحياء بعد الموت». 53 ومن الأدلة الكونية التي استدل بها ابن عاشور على حدوث البعث ما ورد في قوله تبارك وتعالى: «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما..». 54

يحدد المعنى اللغوي للرتق والفتق فيقول: «الرتق الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء، الفتق: ضد وهو الانفصال والتباعد بين الأجزاء». 55 وحددهما ابن عاشور بالمعنى نفسه: رتق: الرتق ضد الفتق، ارتتق: التحم». 56

الفتق خلاف الرتق، فتقه يفتقه فتقا: شقه. 57

وقد أعطى الشيخ تفسيرات عديدة لمعنى الرتق والفتق، وذكر أن الآية تشمل معنى عاما وبذلك فهي عبرة تعم جميع الناس، وتشمل عبرة خاصة بأهل النظر والعلم فهي من معجزات القرآن الكريم العلمية، 58 ويقول: «ويحتمل أن يراد بالرتق اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة أو كانت أثيرا أو عماء، فكانت جنسا عاليا متحدا ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق، وهو حينئذ كلي انحصر في

فرد، ثم خلق الله من ذلك الجنس أبعاضا وجعل لكم بعض مميزات ذاتية فصير كل متميز بحقيقة جنسا فصارت أجناسا، ثم خلق في الأجناس مميزات بالعوارض لحقائقها فصارت أنواعا». 59

فهذا التحديد لمعنى الآية منطلق مما وصل إليه العلم الحديث من أن السماء والأرض كانتا في الأول ملتصقتين ثم انفصلتا نتيجة انفجارات شديدة حدثت داخل السديم الذي يحتويهما. 60

يقول وحيد الدين خان: «فالكون بناء على تفسير هذه الآيات كان منظما ومتماسكا، ثم بدأ يتمدد في الفضاء، ويمكن رغم هذا تجميعه مرة أخرى في حيز صغير، وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون، فقد توصل العلماء خلال أبحاثهم ومشاهدتهم لمظاهر الكون إلى أن المادة كانت جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن كثيف، متماسك وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة. فبدأت تتمدد، وتتباعد أطرافها، ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرا حتميا لا بد من استمراره طبقا لقوانين الطبيعة التي تقول: إن قوة الجاذبية في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيا بسبب تباعدها، ومن ثم تتسع المسافة بينها بصور ملحوظة...». 61

ويذكر ابن عاشور أن هذه الآية بكل ما تحمله من معاني أفادت الاستدلال على حدوث البعث، فالذي خلق السماوات والأرض وأنشأهما بعد العدم يملك القدرة المطلقة على خلق الإنسان مرة أخرى بعد انعدامه. 62

ومن أي الذكر الحكيم -كذلك- التي وردت في موطن الدعوة إلى النظر والتأمل في حوادث الكون، من أجل الوصول إلى اليقين بحدوث البعث قوله تبارك وتعالى: «وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون»، 63 «وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء، فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون». 64

«والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور». 65

فحين ننظر إلى أواخر هذه الآيات نلاحظ أنها ذيلت بما يفيد أنها أتت لغرض الاستدلال على حدوث البعث، وقد أكد ابن عاشور ذلك حين تحديده لمعاني الآيات الثلاث. 66

ونأخذ من هذه الآيات تحديده لمعنى الآية الأولى بالتفصيل: حدد المعنى اللغوي لكلمة لواقح بقوله: «لواقح: ج. لاقح، وهي الناقة الحبلى.. وصالح لأن يكون جمع ملقح: وهو الذي يجعل غيره لاقحا، أي الفحل إذا ألقح الناقة».<sup>67</sup> وهذا التعريف موافق لما ورد في لسان العرب لابن منظور.<sup>68</sup>

ويذكر معنى الإلقاح العلمي فيقول: «معنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين، فينشأ عن ذلك البخار، الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطرا على الأرض، وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر، فتصلح ثمرته، أو تثبت وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح وهذا هو الإبار»<sup>69</sup>، ويشير ابن عاشور إلى أن هذه الآية في منتهى البلاغة إذ أفادت معنى الإلقاح: بالنسبة للسحاب والشجر في جملة وجيزة وهي: «وأرسلنا الرياح لواقح».

والذي نستخلصه من خلال هذا البحث أن صاحب التحرير والتنوير قد كان وفيًا للشروط التي وضعها للتفسير العلمي لأي الذكر الحكيم، كما نلاحظ إمامه بنتائج العلم الحديث، والتي كان حذرا في الاستدلال بها، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى احترازه من الوقوع في مثل ما وقع فيه العلماء الذين بالغوا في ذلك فخرجوا عن المقصد الأساسي من التفسير.

لقد استخدم ابن عاشور النتائج العلمية كوسيلة فقط لتأكيد مقاصد القرآن الكريم، وتثبيت معانيه، ولم يجعلها هدفاً أساسياً، وحين نتبعنا لحديثه عن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لاحظنا أنه يستدل بها عموماً على إعجاز القرآن. وذكر ذلك صريحاً في المقدمة العاشرة من تفسيره،<sup>70</sup> ثم في تحديده لكل آية يستدل بالنتائج العلمية على القضية الأساسية المصاحبة لها، إذ لا يمكن أن يكون ورودهما معاً إلا لقصد ذلك.

## الهوامش:

(\*) ابن عاشور: هو محمد الطاهر بن عاشور عالم تونسي صاحب التفسير القيم: التحرير والتنوير وهو من كبار علماء المسلمين في علوم الشريعة واللغة والأدب راجع حياته في: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين - دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ومحمد بودينة، مشاهير التونسيين شركة فنون الرسم والنشر والصحافة تونس. ومحمد الخضر حسين، مجلة الهداية الإسلامية م 5 ج 5 سنة 1351هـ ...

<sup>1</sup> الغزالي: جواهر القرآن، دار الآفاق الجديدة، ط:4، 1979، ص26.

<sup>2</sup> يس: 38.

<sup>3</sup> الانفطار: 6-8.

<sup>4</sup> الغزالي، جواهر القرآن، ص27.

<sup>5</sup> الرازي، التفسير الكبير- دار إحياء التراث العربي، بيروت - ج14، ص121.

<sup>6</sup> ق:6.

<sup>7</sup> غافر: 57.

<sup>8</sup> آل عمران: 191.

<sup>9</sup> الرازي، التفسير الكبير، ج14، ص122.

<sup>10</sup> البقرة: 164.

<sup>11</sup> الرازي، التفسير الكبير، ج4، ص179.

<sup>12</sup> المرجع نفسه، ص:203.

<sup>13</sup> النمل: 63.

<sup>14</sup> الرازي، التفسير الكبير، ج24، ص210.

<sup>15</sup> وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى -دار القلم، دمشق - ص23، 24.

<sup>16</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص127.

<sup>17</sup> المصدر نفسه، ص 128، 129.

<sup>18</sup> العنكبوت: 43.

<sup>19</sup> الزمر: 9.

<sup>20</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص44، 45.

<sup>21</sup> الشاطبي، الموافقات المطبعة الرحمانية، مصر - ج2، ص69، 70.

<sup>22</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 44، 45.

<sup>23</sup> المصدر نفسه، ص43، 44.

<sup>24</sup> الزمر، 5.

<sup>25</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج23، ص328.

<sup>26</sup> ابن منظور، لسان العرب -در القلم، دمشق- ج6، ص472.

<sup>27</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص 328، 329.

<sup>28</sup> موريس بوكاي، التوراة والانجيل والقرآن والعلم، دار الكندي، لبنان، ط2، 1978، ص149.

<sup>29</sup> منصور حسب النبي، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، دار الفكر العربي، ص158.

- 30 يس: 40.
- 31 منصور حسب النبي، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص 158، 159.
- 32 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص 328.
- 33 المصدر نفسه، ص 329.
- 34 البقرة: 164.
- 35 البقرة: 163.
- 36 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 2، ص 84.
- 37 المصدر نفسه، ص 87.
- 38 المصدر نفسه، ج 2، ص 88.
- 39 المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- 40 النمل: 88.
- 41 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 20، ص 47-51.
- 42 - انظر كذلك: منصور حسب النبي: الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص 167.
- 42 طنطوي جوهري: الجواهر في تفسير القرآن الكريم- مصطفى البابي وأولاده، 1347 - ج 13، ص 225.
- 43 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 20، ص 49.
- 44 المصدر نفسه، ص 51.
- 45 الحج: 5.
- 46 المؤمنون: 12-16.
- 47 القيامة: 36-40.
- 48 الطارق: 5-8.
- 49 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 17، ص 148، 197.
- 50 انظر: محمد علي البار: خلق الإنسان بين القرآن والطب - الدار السعودية، للنشر، ط 3 - ص 1981.
- 51 الزمر: 6.
- 52 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص 333، 334.
- 53 - انظر محمد علي البار: خلق الإنسان بين لقرآن والطب، ص 433.
- 53 بوكاي، التوراة، الإنجيل والقرآن والعلم، ص 177.
- 54 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 17، ص 199.
- 55 الأنبياء: 30.
- 56 التحرير والتنوير، ج 17، ص 53.
- 57 5- ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 404.
- 58 المرجع نفسه، ج 12، ص 170.
- 59 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 17، ص 56.
- 60 المصدر نفسه، ص 55.
- 61 منصور حسب النبي، الكون والإعجاز العلمي للقرآن - دار الفكر العربي - ص 323، 324.
- انظر كذلك: محمد إسماعيل إبراهيم: القرآن وإعجازه العلمي، دار الفكر العربي، ص 62.

- <sup>62</sup> وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص200.
- <sup>63</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص55.
- <sup>64</sup> الحجر: 22، 23
- <sup>65</sup> - الأعراف: 57.
- <sup>66</sup> فاطر: 9.
- <sup>67</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 14، ص39، ج: 8، ص183، ج22، ص267.
- <sup>68</sup> المصدر نفسه، ج14، ص37.
- <sup>69</sup> لسان العرب، ج، ص415، 419.
- <sup>70</sup> ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص38.
- أنظر بالتفصيل ذلك عند: حنفي أحمد: التفسير العلمي للآيات الكونية، دار المعارف، ط3 - ص368.